وخلاصة القول هنا إن أي تقييم للاتجاه الاستقرائي الوصفي في البحث اللساني لا بد أن يأخذ بعين الاعتبار المناخ العام الذي احتوى هذا البحث في النصف الأول من القرن العشرين، وذلك حتى لا تأتي الأحكام قاسية مبتورة عن سياقها التاريخي.

وبالطبع لا يتوجب علينا الالتزام بمثل هذه الروح عند تقييم أي تحيز للاستقراء والوصف في أيامنا هذه، فعهد الاستقراء والوصف بلا تفسير منظم ولى وانتهى.

قائمة المراجع

المراجع العربية

1) حسان، تمام : **اللغة بين المعيارية والوصفية**، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب،1980.

2) ـــــــــ : **الأصول : دراسة ابيستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، نحو، فقه لغة، بلاغة**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982.

3) زكريا، فؤاد : **التفكير العلمي**، عالم المعرفة، الكويت، 1978.

4) الصالح، صبحي : **دراسات في فقه اللغة**، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة التاسعة، 1981.

5) سلمان، عادل : «الاستقراء في النحو» **مجلة المجمع العلمي العراقي**، الجزء الثالث، المجلد الخامس والثلاثون، 1984، ص 142-187.

6) الفاسي الفهري، عبد القادر : **اللسانيات واللغة العربية : نماذج تركيبية دلالية**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1982.

Foreign References

(1) Bloomfield, L. : Language, George Allen and Unwin, London, 1976.

(2) Chalmers, A.F. : What Is This Thing Called Science ? An Assessment of the Nature and Status of Science and its Methods, Open University Press, Milton Keynes, 1978.

(3) Chomsky, N. : Aspects of the Theory of Syntax, M.I.T. Press, Cambridge, Mass., 1966.

(4) Cook. W.A. : Introduction to Tagmemic Analysis, Holt, Reinhart and Winston, New York, 1971.

(5) Dixon, R.M.W.: Linguistic Science and Logic, Mouton, The Hague, 1963.

(6) Firth, J.R. : Papers in Linguistics 1934-1951, Oxford University Press, 1957.

(7) Halliday M.A.K. : «Categories of the Theory of Grammar», Word, Vol. 17, 1961, pp. 241-292.

(8) Hanson, N.R. : Patterns of Discovery, Cambridge University Press, 1975.

(9) Harris, Z.S. : Structural Linguistics, Chicago, 1951.

(10) Hockett, C.F. : A Course in Modern linguistics, McMillan, New York, 1958.

(11) Pike, K.L. : «Toward the Development of Tagmemic Postulates» in R.M.Brend and K.L. Pike (eds.) Tagmemics Vol. 2 : Theoretical Discussion, Mouton, The Hague, pp.91-127,1976.

(12) Popper, K. : Conjectures and Refutations, Routledge and Keegan Paul, London, 1974.

(13) de Saussure, F. : Course in General Linguistics, Fontana/ Collins, 1970.

الطاقة اللغوية ودورها في عملية الاتصال

د. يحيى عبد الرؤوف جبر

لولا الزجاج لما أنار مصباح كهربائي، فهو من الأهمية بحيث يتكافأ مع الكهرباء ذاتها في مجال التنوير. نضغط على المفتاح فينبثق النور من خلال الزجاج. هل تستطيع أن تتصور كيف تكون المصابيح لو لم يهتد الإنسان لصناعة الزجاج ؟

لكن ما هذا الذي يقال ؟ أنحن في حديث عن اللغة أم الحديث عن الزجاج والكهرباء ؟ حسنا .... فلننتقل إلى اللغة ... إلى زجاج المصابيح والمرايا.

عندما يمر التيار الكهربي في شريط التنجستون داخل المصباح يتوهج الشريط، ويخترق النور الزجاج ليقع على الأشياء فنتعامل معها تبعا لما يتطلبه الظرف الذي نكون فيه.

وعندما تخطو في الصباح لتقف أمام المرآة فإن صورتك تقع على المرآة وتنعكس لتقع على عينك ... فتتعامل مع ملابسك أو شعرك استنادا لما تراه.

في بعض الأحوال، بل في كثير منها، تنعدم الرؤية أو تكاد، فلا ندرك الصورة في المرآة، ولا الأجسام التي ينتهي إليها النور. انظر في المرآة فإنك لا ترى إلا شيئا واحدا في الوقت الواحد رؤية حقيقية، بينما الأشياء المنعكسة عن المرآة أكثر من أن تحصى. وما أكثر الأجسام التي يقع عليها النور، ولكنك لا تدركها جميعا.

ومهما تكن من حال، فإن الخلل في الرؤية والإدراك يرجع لسبب واحد على الأقل من أربعة أسباب هي :

أولا : انقطاع التيار الكهربائي أو عصب البصر، أو ضعف العين.

ثانيا : انكسار الزجاج من المرآة أو المصباح أو كثافة زجاج المصباح، أو أن يخالطهما لون يحجب الرؤية أو قسطا منها.

ثالثا : بُعد الأجسام والمنعكسات واضطرابها أو دقتها.

رابعا : شرود الذهن واشتغاله عن موضوع الإدراك.

إن ما نريد أن ننتهي إليه عقب هذه المقدمة الضرورية هو أن اللغة تتمثل في اجتماع أربعة أشياء، ولا تصح إلا بصحتها، وأن نقصا أو خللا يعتري أحدها ليفقدها قسطا من الصحة والسلامة، فاللغة تمثيلا بالمصباح المنير هي التيار والنور وهي الزجاج الناقل بشفافيته، وهي الأجسام المسلط عليها النور إلى جانب أنها رد الفعل الناجم عن إدراك المرئيات من تحريكها أو تحديدها أو غير ذلك.

واللغة هي العين الناظرة في المرآة، والمرآة ذاتها، والمنعكس، ورد الفعل الناجم عن إدراك المنعكس، كأن تقف أمام المرآة فترى في المنعكسات عليها شعرك أشعث فتأخذ المشط لتسرحه، أو لباسك مضطربا فتصلح من هندامك.

واللغة، استنادا لما سبق، هي المعنى المعبر عنه، واللفظ المعبر به وموقع العبارة من دماغ الشخص المعبر له، ورد الفعل الناجم عن ذلك، وإن نقصا في هذه أو في واحد منها ليمتد بأثره إلى قيمة اللغة ويجعلها جديرة بأن توصف بالقصور، إلا أن الخلل في الرابع، وهو رد الفعل، ليساوي في مقداره عبثية اللغة عند محدثه. وإلا ما جدوى الحديث مع أصم لا يسمع ما تقوله له ؟ أليس ضربا من العبث ؟ ما جدوى الحديث مع أمريكي بالعربية وهو لا يفقه العربية ... بل ما جدوى الحديث في ظرف لا قيمة فيه للكلمة ما دامت لا تترجم عملا وفعلا ... تسمع قعقعة ولا ترى طحنا ... إن أعلى قيمة للغة لا تتحقق إلا إذا اجتمعت العناصر الأربعة وكانت سليمة تماما. وهذه العناصر هي في الحقيقة أركان العملية اللغوية، وأساس قيمتها كوسيلة للاتصال والإبداع والتفكير، وهي :

1 ـ المعبَّر عنه، وهو التيار ووهج سلك التنجستون، وهو الجسم الذي ينعكس على المرآة. وينبغي أن يكون واضحا في ذهن المتحدث بصورة كاملة، وهو، مع ذلك، قليلا ما ينتهي إلى ذهن المتلقى بنفس الدرجة من الوضوح، ولذا، فإن رد الفعل كثيرا ما لا يطابق المطلوب،فيقصر دونه أو يربو عليه، وتكون المبالغة. ومرد ذلك إلى ما يعتريه ـ أي المعبر عنه ـ من انحراف عن السمت من جراء مروره بالمحطات التالية حيث قد تكون كفاءتها غير كافية.

إن المعبر عنه جزء من الملقي، وهو إنما ينتقل إلى الملقى إليه ليصير جزءا منه، وهكذا تصبح المعاني المعبّر عنها، واللغة بكاملها، أداة من أدوات الوحدة بين الجماعات، ذلك بما تمثله من قاسم مشترك أعظم بين أفرادها، هذا في حالة كون المعاني واحدة ... وليس الألفاظ.

وبقدر ما تكون قوة التيار والوهج والمعنى ووضوح الصورة المنعكسة فإن رد الفعل ينبغي أن يستجيب لذلك.

2 ـ المعبر به، وهو اللفظ، وقد تكون الإشارة أو نحوها، ولا فرق في المحصلة. زجاج المصباح يشف عن النور وينقله، وصفحة المرآة تعكس المرئيات ... وتنقل ما لا يقع في مواجهتنا وتضعه نصب أعيننا. وكذلك اللفظ، حيث يحمّله المتحدث معانيه، فقد يكون بعيرا قادرا، وقد ينوء به المعنى كما ناءت مفاتيح كنوز قارون بالعصبة أولى القوة، وبقدر ما تكون المرآة صقيلة، وزجاجة المصباح شفافة، واللفظ واعيا للمعنى معبرا عنه، فإن رد الفعل يكون جديرا بتوضيح ذلك على النحو المطلوب.

وكذلك الألفاظ، فهي رموز المعاني، فإذا كانت الرموز واحدة لمعانيها عند الناس فإنها تشكل آنئذ وسيلة للتفاهم دقيقة، ولا يمكن أن يحدث بينهم خلاف قط. أما إذا كانت مشوشة فإن الذين يستخدمونها لن يتفاهموا بسهولة، ويكونون أدنى للشجار.

3 ـ المتلقَّى أو ما يفهمه القارىء أو المستمع من العبارة : يتلقى المستمع أصواتا .. والقارىء صورا لرموز يحولها الدماغ إلى تيار حسي سرعان ما يتمخض عن إدراك ووعي يناظران ما يقابلهما عند الملقي تقريبا.

إن العملية اللغوية لتشبه، إلى حد كبير، عمليتي الإرسال والاستقبال باللاسلكي... والآلة الكاتبة، حيث تضغط على الحرف فينطبع نظيره على الورقة.

إن الإنسان ليس آلة تصوير أو كتابة بحيث يمكن أن نصنع آلافا منها متطابقة.. ليس هناك اثنان ينطبقان انطباق مثلثين تساوت أضلاعهما. إن الملقي والمتلقي ليضفيان على العملية اللغوية أشياء من

نفسيتيهما المختلفتين نظرا لاختلاف موروثهما ومكتسبهما، ومن هنا ينشأ الخصام في كثير من المناقشات، والمجالس والمؤتمرات، حيث يطغى المنظور النفسي لأطراف النقاش على طبيعة الحديث، ولأن الألفاظ التي تحمل المعاني لا تكون على قدر واحد من التناسب عند طرفي العملية اللغوية. فليست كلمة «ساطورة» ـ مثلا ـ واحدة في دلالتها عند الجزار وغير الجزار. لا نقصد الشكل واللون والحجم وحسب، ولكن نقصد الموقع من النفس قبل ذلك وبعده، فهي عند الجزار من المألوفات الوديعة التي يستعين بها في قضاء عمله، وهي من أكثر الأشياء التي تدخل في حياته العملية.. لكنها عند غير الجزار تلك الأداة المثيرة للرهبة، الثقيلة في اليد وعلى النفس، التي قلما يستخدمها. أرأيت معنى القط عند طفل ورجل، أليس مختلفا ؟ ومعنى الأسد عند مروّضي الوحوش أو الذي يقوم على تغذيتها في حدائقها، أو عند إفريقي يراه مرة أو مرتين في الشهر، وعند من لم يره إلا صورة في الكتب ؟ أليس مختلفا ؟.

من هنا يتخلق الطابع الذي يتلون به المعنى المنعكس على مرآة دماغ المتلقي. فالقمر هو القمر.. لكنك تنظر فيه، فتتشكل أمام عينيك صورة ما، وينظر فيه غيرك ولا يرى ما تراه ... فلكل ليلى وكل يغنى لليلاه. وبعبارة أخرى، نسمع كلمة «فيل» أو «أسد» فتشدان الذهن إلى قوة الحيوانين المعروفين، بينما ينشد ذهن غيرك إلى ضخامة الفيل ولُبدة الأسد، وينشد ذهن ثالث إلى غابات إفريقيا حيث يعيشان، بينما ينشد ذهن رابع إلى حديقة حيوانات طاف بها يوما فرآهما. وربما ذكرتا ذهن خامس بحلقة من برنامج مرئي عرض فيه الأسد والفيل وغيرهما من الحيوانات، ثم تسللت إلى ذهنه ذكريات تربطه بالذين شاهدوها معه، فإذا به يجلس الآن معك بجسمه بينما ذهنه شارد ... وهكذا، فالأمر تماما كالجهة، جهة الجنوب مثلا ؛ تذكر الكلمة فلا تحدد الدرجة المقصودة، ذلك أنها تسعون درجة، وما هو جنوب بالنسبة لنا، فهو شمال بالنسبة لأولئك الذين يعيشون في خط الاستواء، وموقع سورية إلى الغرب من العراق، ولكنه إلى الشرق من البحر المتوسط أيضا.

ونظرا لما تقدم، فإن الانعكاس المعنوي الذي تحدثه الألفاظ في ذهن المتلقي يخضع في وضوحه وسلامته لعدة أسباب، ليس أقلها أهمية ما يتصف به المتلقي من توافق نفسي مع الملقي. والذين يفهمون ما يسمعون بسرعة فائقة غالبا ما يكونون على قدر كبير من المرونة، يمكنهم من التوافق النفسي مع محدّثيهم. وأهم العوامل في التوافق هو ما سماه علماء العربية الأقدمون بالمقام من قولهم «لكل مقام مقال» فمن هو معك في مقام واحد يكون أقدر من سواه ممن ليسوا معك على فهم ما يقال من حديث.

وتمر بأحدهم فتلقي عليه السلام فيرده بمثله أو يزيد عليه، وربما رده ناقصا مرة أخرى، وقد لا يرده مرة ثالثة، أو يتجهم في وجهك ويصرخ بألفاظ نابية في بعض الأحوال. لماذا ؟ أنت أنت في كل الأحوال، والمرء هو المرء، ولكن الذي تغير هو الحال والزمان، كثيرون يشاهدون مواقف كهذه فيستغربون ويهزون أكتافهم ساخرين لكن الأمر يكون طبيعيا إن هم أدركوا الجو النفسي بينهما ولم تكن نظرتهم سطحية، وكأن بعض البقاع أيمن من بعض، فإن بعض الأوقات أيمن من بعض.

وإذا مررت بقسم اللغة العربية في كلية الآداب وسمعت أحدهم يقول : «الفاعل» فإنك لن تتردد في فهم أن المقصود هو محدث الفعل الذي يكون مرفوعا. وإن سمعت الكلمة في كلية القانون أو في المحكمة، فإن الذهن سينصرف إلى مرتكب الجريمة الذي ينتظر العقوبة.. وإن كنت في اليمن وسمعتها، فاعلم أن قائلها يقصد الحرّاث في الغالب، كل ذلك بالرغم من أن الكلمة واحدة. وأنت أنت الذي قد سمع.